

اجتهادات الاستحقاق .. والمستحق

يحظى مبدأ الاستحقاق بمكانة مميزة فى أدبيات الليبرالية الجديدة، وفى مجادلات أنصارها. ويتلخص هذا المبدأ فى أن الأشخاص الذين يحصلون على مزايا ومنافع، ويحققون أرباحا ومكاسب، أكثر من غيرهم يستحقون ذلك لجدارتهم ومهارتهم وذكائهم وقدرتهم على الإنجاز. كما أنهم يستحقون الإشادة والتقريظ، وليس النقد والهجوم.

وينطلق هذا المبدأ، الذى بلوره وطوره دانيال بيل وروبرت نوزيك فى منتصف سبعينيات القرن الماضى، من أن المواهب الطبيعية هى سبب الفروق بين البشر، ومصدر التفاوت، وليس عدم عدالة السياسات الاقتصادية والاجتماعية. ومؤدى هذا المبدأ أن النظام الاجتماعى يوزع المنافع والمزايا والمكاسب بحيث يحصل الأكثر كفاءة وذكاء وقدرة على مقادير تزيد على غيرهم.

ورغم أن تلاميذ بيل ونوزيك، وقبلهما ميلتون فريدمان، يزعمون بمجادلاتهم المستندة على هذا المبدأ، ويحاول بعضهم إثبات صحته اعتمادا على مقارنات منهجية وتحليل إحصاءات وبيانات باستخدام أساليب حديثة، فهم يتعشرون فى الإجابة عن أسئلة تُضعف موقفهم.

ونسوق هنا سؤالين فقط. أولهما هل يحدث توزيع للمزايا والمنافع حسب الكفاءة والقدرة والإنجاز فى المجتمعات كلها حتما؟ ربما يحدث هذا بدرجة أو بأخرى فى مجتمعات تتوافر بها قواعد ومعايير تلقى قبولا واحتراما.

وحتى فى هذه المجتمعات تسهم عوامل أخرى فى حصول أشخاص على منافع ومزايا تفوق غيرهم، كأن يكونوا أكثر قدرة على الخداع أو الاحتيال أو التسلق، أو لأنهم يحترفون الوصول إلى غاياتهم. ويزداد أثر هذه العوامل فى مجتمعات لا تعرف القواعد والمعايير الموضوعية التى يفترض ليبراليون جدد أنها موجودة دائما وفى كل مكان، فيستحوذ الأكثر فهلة وبراعة فى الاحتيال على القسم الأكبر من ثروة المجتمع.

أما السؤال الثانى فهو: هل من العدل أن يكون الناموس الخلقى، الذى يرى الليبراليون الجدد أنه يخلق التفاوت، هو المحدد الوحيد لمواقع الأفراد فى البناء الاجتماعى، وإذا كان هذا الناموس معطى طبيعيا، فهل الظلم والغبن المنتشران فى مختلف المجتمعات طبيعيان أيضا؟ وألا يصح العمل لإعادة تنظيم المجتمع ليكون طبيعيا بطريقة أكثر عدلا؟

ومؤدى السؤالين، وأسئلة أخرى، هو: هل كل من يحصلون على مكاسب غير عادية يستحقونها حقا؟